في الظلام ولا تلمع الاَّ بالظهور في النور . فاذكرنَّ هذا ولا تنسينهُ وكنَّ اردتنَّ ان يسطع الناس فسالكنَّ بنور باهر منقطع النظير اعرضتهُ قبل كل شيء على شمس البر وكوكب الصبح المنير

فرجائي ورجاء جميع الحاضرين هنا انَّ كلاً منكنَّ تفارق هذه المدرسة وهي بهديها مهتدية ومن نورها مقتبسة . مصدّقة ما تعلمتهُ بأطهر اخلال وافضل الاعمال وتحققة بذلك آمال السادة وامانيَّ الرجال . حتى يراها الاقارب والاباعد ويشدوا فيها بصوتٍ واحد : —

يا حبذا البنت إذ كانت بمدرستي كالزَّهر في الروض او كالزُّهر في الفلكِ
والآن عنها يقول الناظرون الى آدابها انها ليست سوى ملكِ
شبَّت على طاعة التهذيب عانيةً لما يسوِّدها في حضرة الملكِ
عفافها ساطع كالطيب منتشرٌ وطهرها طالعٌ كالبدر في الحلكِ

بيروت اسعد داغر

مهد الجنس السامي (١)

ايها السادة والسيدات الكرام . لا اعتذر في موقفي هذا عن اني اتخذت هذا الموضوع دون غيره من بقية المواضيع وهي كثيرة لانهُ موضوع سافني اليهِ والى البحث فيهِ حرفتي الخصوصية فان من درّس النحو العربي في المدرسة الكليَّة نحوًا من خمس عشرة سنة متواليات واضطر الى قراءة آداب هذه اللغة سنين عديدة قياماً بفروض حرفتهِ وايفاء وظيفتهِ حتما لا بدَّ لهُ اذا خيِّر من ان يختار الكلام في موضوع شبيهٍ بموضوعي او في ما يقاربهُ . بل اعتدَّاني وُفّقت في انتقاء الموضوع لا احسانًا مني بل حسنةً كانت من السادة والسيدات الذين يسمعون اراد الله ان يكافئهم عليها من حيث لا يشعرون لعلموا ان جزاء الحسنة لا يضيع عندهُ تعالى . والاَّ فما كان ينبغي وقد تُرك لي ان انتقي الموضوع لنفسي من اني كنت اخذت علم النحو وفائدتهُ وتاريخهُ وتاريخ الذين اشتغلوا بهِ حتى وصل الى ما وصل اليهِ في حالتهِ الحاضرة او علم البيان وصافهُ وتاريخ الذين ألّفوا فيهِ كذلك . ولو فعلت ذلك فكيف كانت حالتكم ايها الكرام في اثناء هذه المدة التي لا خيار لكم فيها الاَّ ان تسمعوا وتصغوا

(١) خطبة قيلت في بيروت يوم ٢٨ حزيران (يونيو) ١٩٠٧ في حفلة مدرسة البنات الاميركانية السنوية لاعطاء شهاداتها لتلامذتها المتخرجين

احتراماً للموقف العلمي الادبي الذي دعاكم الى احياء هذه الليلة الشائقة — الله اعلم ماذا كانت حالتكم اذا لم اكدوا ايها السادة والسيدات الكرام انكم مجازون عن حسنة او حسنات صدرت منكم فيما سبق وكان لجزيله في صرفت عن الكلام في امهين ما يمكنني الكلام فيه وفقاً لما تقتضيه حرفتي الخصوصية على ما الفت اليه

قلت ايها السادة اني اخترت الكلام عن موضوع له مساس بموضوع حرفتي على انهُ مع قربه منها بحسب الظاهر فهو بعيد عنها بُعد ما بينها وبين قلب البلاد العربية مارب او نجران في بلاد اليمن وشبام اوساوى في حضرموت ورياض اوسدوس في نجد اذا قصد الوصول الى هذه الاماكن او بعضها برًّا عن طريق تيماء والحجاز. واي قرب بين النحو والبيان وما اليهما من العلوم العربيَّة من حيث هي علوم آلية وبين مهد الامم السامية ؟ بل البعد عند التحقيق اكثر مما صوروهُ بالبعد المكاني المحسوس . ولو علمتم ايها السادة ما عانيتهُ من البحث والتنقيب في الاونة المتاخرة وما بذلتهُ من الفكرة والسهر ليلاً والاستيقاظ باكرًا الى متابعة درس هذا الموضوع نهاراً لقلتم جادك الله ولرأيتم اني استحق شيئاً من انتباهكم وتوجه اصغائكم اليَّ من غير ملل الى ان اكون قد فرغت من تلاوة ما كتبتهُ عليكم . والمرجح عندي اني سأحظى بهذا الفضل والمجاملة منكم

تعلمون ايها السادة ان سوريا وطننا العزيز عموماً وصيدا اقدم مدن هذا الوطن خصوصاً كانت منذ الوف من السنين ولا تزال لحد هذه الساعة تتكلم بفرع من اللغة السامية وبعبارة اخرى كان يقطنها شعب من الجنس السامي يتكلم باللغة السامية . ومثل صيدا صور وعكا وحيفا ويافا وغزة وعسقلان وبيروت وجبيل وطرابلس وارواد وعكار وحمص ودمشق وسائر مدن سوريا الى ان نصل الفرات ودجلة . بل على شواطئ هذين النهرين العظيمين قامت اشهر ممالك الازمنة الغابرة كمملكتي بابل واشور . وكان الشعب السائد والمسلط حينئذ في كل هذه الاقطار سامياً او يتكلم باللغة السامية . ومن سواحل هذه المدينة اعني صيدا العريقة في القدم ومن سواحل صور العظيمة جابت جاليات استعمرت سواحل هذا البحر العظيم — البحر المتوسط — شمالاً وجنوباً في اوربا وافريقيا وحملت الى تلك الاصقاع التجارة والصناعة والدين والآداب والعلم وكل ما يحملهُ الغرب الآن الى قلب افريقيا واستراليا وجزائر الباسيفيك ان لم اقل الى قلب اسيا والاصقاع النائية منها . وكل هذه الجاليات كانت سامية او تتكلم باللغة السامية . فمن اين جاءت هذه الشعوب العظيمة القديمة واين كان مهدها الذي نشأت وترعرعت فيهِ الى ان شبَّت وبلغت وهاجرت واستعمرت . وبعبارة اخرى اين كان المهد الذي نشأنا فيهِ

فهن بقية اولئك الشعوب القديمة العريقة في الدين والتمدن والعلوم والصنائع والمهاجرة والاستعمار وما الى ذلك من ظواهر العز والعظمة والتغلب التي هي من دلائل التفوق والارتقاء في العقل وايضاً في الهمة والاقدام اللذين ما بعدهما همة ولا اقدام

مضى على العالم قبل تاريخنا المسيحي خمسة وعشرون قرناً وصلت الينا اخبارها كتابةً وآثاراً وما سوى ذلك قرون لا يعلم عنها الاَّ الله وليس في العالم المعروف حينئذٍ اعني اوربا وافريقيا والشرق الادنى تجارة الاَّ وهي في يد هذا الشعب الذي يتكلم باللغات السامية ولا مهاجرة او استعمار الا والمهاجر والمستعمر جاليات منهُ ولا صناعة ولا زراعة راقية الاَّ ان يكون هو الصانع والزارع بل لم تكن صولة الاَّ صولتهُ ولا تمدن الا تمدنهُ ولا علم ولا آداب الاَّ في شعوبهِ وقبائلهِ كما تشهد آثارهُ الخالدة الباقية الى الآن وستبقى دليلاً على عظمة هذه الامم وشاهداً عدلاً ينطق عنها ويشهد بما كان لها من الحيطة والوصاية والولاية على التمدن القديم فضلاً عن التأثير العظيم الذي أثَّرتهُ فيهِ رأساً ومباشرةً ومن بعضهِ ما تركتهُ لنا يد الدهر اثراً بعد اهلهِ في خرائب بابل واشور والين وفي مصر ايضاً والشام . واغليكم ايها السادة والسيدات الذين تسمعون كلماتي هذه الليلة من بقايا اولئك الاقوام الذين كان من صفتهم ما قد سمعتم ولا يزال فيكم على ما اعتقد عروق تنبض من همتهم واقدامهم وتفوقهم . أفما يهمكم اذن او على الاقل اما يجتذب سمعكم واصغاءكم الكلام او البحث في المهد الذي نشأ فيهِ آباؤكم الاولون والمواطن الاولى التي تفرقوا منها تجاراً ومستعمرين وغزاةً فاتحين . بلى انهُ يهمكم ذلك والاَّ فانتم يراهُ من اولئك الاقوام ويراهُ مما كان فيهم من الهمة والاقدام واقل ما يقال فيكم انهُ يحقكم التشوف الى بلوغ بعض ما كان لهم من التفوق والارتقاء في مراقي العز والشرف . ولكن يأبى الله والواقع ان يتوجه اليكم شيءٌ من هذه التهمة الشنعاء فاصغوني اذن صغى الله لكم وانتبهوا الى سلسلة ايحائي انتبه اليكم طرف الدهر الراقد بعينهِ وكرمهِ ان شاء الله

لا يسعني الوقت ان اذكر لكم المذاهب التي ذهب الى كلٍّ منها فريق من اكابر علماء الآثار في الوقت الحاضر فاني لو فعلت ذلك لاقتضاني الامر أن اخطب فيهِ سبعة ايام متوالية كل يوم نصف ساعة على الاقل وهذا مما لا تقوون على احتمالهِ ولا اقوى انا ايضاً على القيام بهِ فيما لو اردتهُ . فالحث سابقاً الى الشعوب التي تركت ما تركت من الآثار العظيمة في ممالك بابل واشور وان هذه الشعوب كانت تتكلم نوعاً من اللغة الساميَّة واقول هنا ايضاً ان الآثار تدل دلالةً صريحةً أن قد كان في تلك البقعة امم اخرى سبقوهم الى عبارة تلك

البلاد منهم أمة الاكاديين والسومريين وكانت لغة هؤلاء الاقوام السابقين لغةً اخرى بعيدة كل البعد عن اللغة الساميَّة وكذلك كانت عوائدهم واخلاقهم وآدابهم. وهؤلاء الذين تغلبوا عليهم جاؤوا البلاد فاتحين وبنوا على انقاض تمدنهم ذلك التمدن السامي العظيم الباقية آثاره الى اليوم. فمن اين جاء هؤلاء الفاتحون. لا يمكن ان يكونوا قد جاؤوا من شرقي الفرات ودجلة ولا من شرقي خليج فارس ولا من شمالي هذه المواضع لاننا لا نعلم ولا هنالك آثار على الاطلاق تدل انهُ كان في تلك الاصقاع المذكورة شعب سامي بل كانت البلاد ولا تزال يسكنها الماديون القدماء والفرس ومن سواهم من امم الاكراد والتركمان او من قاربهم من قصائلهم وشعوبهم. وعليهِ فان هؤلاء الغزاة الفاتحين الساميين او الذين يتكلمون اللغة الساميَّة لم يأتوا الى بلاد ما بين النهرين من الجهات التي ذكرناها.

وكذلك يقال انهم لم يأتوها من اسيا الصغرى وشطوط البحر الاسود ولا من البلاد التي تناخمهما لان لغات اهل هذه الاصقاع واخلاقهم وعوائدهم وآدابهم وتمدنهم بعيدة كل البعد عن لغة واخلاق وعوائد وآداب وتمدن اهل بابل واشور المتكلمين باللغة السامية والناشرين لواء التمدن السامي واخلاق اهلهِ وعوائدهم وآدابهم وانواع دياناتهم. فلم يبقَ لنا اذن الآن الاَّ القول انهم جاؤوا من جهة الجنوب اعني البلاد العربيَّة. فالبلاد العربية هي اذن مواطن الاشوريين والبابليين الاولى والمهد الذي نشأوا فيهِ قبل ان قدموا غزاة وفاتحين الى بلاد ما بين النهرين وهي البلاد التي تركوا لنا فيها آثارهم الخالدة وآداب لغتهم السامية مكتوبة على اوراق من الاجرّ. لغة ما زالت لغة التجارة والادب والعلم والدولة في العراقين والشام ومصر اجيالاً بعد انقراض دولتهم واستيلاء دولة الفرس الاولى على هذه الاصقاع والممالك بل كانت لغتهم هذه لغة لدولة الفرس الرسميَّة حتى في آسيا الصغرى حيث كان للغة اليونانية والآداب اليونانيَّة ما كان من النفوذ والانتشار

اذا حولنا نظرنا عن شعوب ما بين النهرين الى الشعوب او القبائل التي استعمرت بلادنا هذه من شمالها الى جنوبها ومن غربها على ساحل المتوسط الى بادية السماوة والحجاز رأينا لغة تلك الشعوب عن اخرها لغة ساميَّة بحتة. اما العمالقة في الجنوب ومن على شاكلتهم من الشعوب المتناخمة العربية فقلما يُشك في انهم جاؤوا راسًا من البلاد العربية. والعقل هنا يتفق مع النقل فان مؤرخي العرب اجمعوا على ان اخرهم ان عمالقة الشام القدماء جاؤوا اليها عن طريق الحجاز. واما العبرانيون واخوتهم الادوميون وابناء عمهم العمونيون والموابيون فرحلوا الى سوريا في عصر متأخر مما بين النهرين وشاهم اراميّو دمشق ايضًا فانهم وان كانوا قد سبقوا

العبرانيين الى الرحلة والاستيطان في داخلية البلاد لا يخرجون عن انهم مثلهم اي من فخ الساميين ولذلك قواطن آبائهم الاولى كانت البلاد العربية ومنها رجعوا الى ما بين النهرين وبعد استيطانهم هناك مدةً لا نعلم مقدارها عادوا الى الرحلة فاتجهت بهم الى سوريا ولا شك انهُ كان يضاف اليهم من حين الى آخر شراذم من قلب البلاد العربية ومن شماليها يرحلون اما تجاراً او على قصد النجعة اولاً فتطيب لهم البلاد ويزمعون على الاقامة فيها . وليس هذا بالامر المستغرب الذي لا يقبلهُ العقل ولا هو بالنادر الذي لم يسمع بمثلهِ اولم يتكرر في الايام بل قد تكرَّر مراراً . ولنا شواهد كثيرة نبدأُ بأقربها الى زماننا الحاضر . من ذلك ما كان في اوائل عهد المسيحيَّة فان الغسانيين هاجروا الى الشام من اليمن وبعد كثير من الحل والترحال اقوا عصا الاقامة في الشام وحوران واتصلت مواطنهم من هناك الى الفرات شمالاً . وكان رَحَّل من قبلهم ايضاً السلحيون والنبهانيون والتوخيون والقوا عصا اقامتهم بالشام وفلسطين شرقي البحر الميت وجنوبيهُ . ومن قبل ذلك في ايام عزرا ونحميا كان جُشم العربي يتامر طوبيا العموني وسنبلط الحوراني على اليهود في اورشليم . ومن قبل ذلك في اثناء غزوات نبوخذنصر ملك بابل كان ارميا النبي يتنبأُ عن هلاك قيدار وبني المشرق الامة التي لا مصاريع ولا عوارض لها وتسكن وحدها . الامة الكثيرة الجمال والماشية المقصوصة الشعر مستديراً . اوصاف تدل على ان ارميا النبي كان عارفاً بالعرب كاهل اورشليم او كاهل السلط في الوقت الحاضر ان لم يكن اكثر منهم . ومن قبل ارميا بأجيال في ايام ايليا النبي اهاج الرب على يهورام ملك يهوذا صهر آخاب ملك اسرائيل روح الفلسطينيين والعرب الذين بجانب الكوشيين فصعدوا الى يهوذا واقتحموها وسلبوا كل الاموال الموجودة في بيت الملك . وقبل ذلك ايضاً في ايام سليمان كان شعراء اسرائيل يعرفون خيام قيدار ويشبهون بها في اشعارهم . بل في ايام شاول كان العمالقة وبنو المشرق مناحسين لاسرائيل . واقدم من ذلك بكثير اعني في ايام جدعون كان ذئب وصلتاع وغراب وذئب ملكين من ملوك المديانيين والعمالقة وبني المشرق واميرين من امرائهم . وكان هؤلاء الاقوام يصعدون بمواشيهم وخيامهم ويجيئون كالجراد في الكثرة وليس لهم ولجمالهم عددٌ فيتلفون غلة الارض من حوران فنازلاً كل شرقي الاردن حتى تجيءُ الى غزة

بل مخالطة عرب بلاد العرب لسوريا يتصل عهدها بايام ابرهيم وما قبلهُ ايضاً فان اسمعيل بن ابرهيم سكن بينهم وكذلك اولادهُ من قطورة . وكانت طريق التجارة بين مصر والعراق من ذلك الحين وما قبلهُ في ايديهم . وحويلة التي بذكرها مقر التكوين في الكلام

عن مواطن الاموريين انما هي على ما ارى بلد ابن الرشيد في جبل شمر المعروفة اليوم بجبال ولا تزال المشابهة بين الاسمين الاسم القديم والاسم الحالي واضحة جدًّا بحيث لا تخفى على متأمل . وقد ذكرت ما ذكرته بياناً لشدَّة ما كان من المخالطة بين سوريا وبلاد العرب من اقدم الازمنة التاريخيَّة وهذه الساعة مما يستدل منهُ على ان العربيَّة ما زالت من اقدم الازمنة المعروفة ترمي بتموُّجات من بنيها حيناً بعد آخر على اطراف سوريا . وانهُ وان يكن معظم شعوبها من الفرع السامي العراقي فقد كان كثير من بنيها ايضاً في ذلك الزمان من الفرع السامي العربي . وارجح ان الرفائيين في عشتاروت قرنايم والزوزيين في هام والايميين في شوى قريتايم والحوريين في جبلهم سعير الى بطمة فاران التي عند البرية والعمالقة في عين مشفاط التي هي قادش والاموريين في حصصون تامار والمناقيين في حبرون كل هذه القبائل كانت من الفرع السامي العربي . ولا يبعد ذلك فان الدولة التي كانت تستولي على مصر في ايام ابرهيم وتعرف بالملوك الرعاة او دولة الهكسوس كانت من الفرع السامي العربي وجاءت مصر عن طريق بلاد العرب . وهؤلاء القبائل والشعوب الكنعانية كانوا معاصرين لها والارجح انهم جاؤوا معها وحلوا في سوريا في اثناء الزمان الذي حلَّت فيهِ تلك الدولة بلاد وادي النيل ان لم يكن قبل ذلك "بسبع سنين"

ومن اغرب الاتفاقات التي عثرت عليها ان حبرون او الخليل اليوم على ما ذكرهُ الاستاذ العلامة سايس كانت تسمَّى بلاد خيبري . وابن خلدون ينقل نقلاً عن الطبري ما يفهم منهُ ان خيبري هو بطن من بطون عاد وان رئيسهم او احد امرائهم جلهمة ابن خيبري كان في جملة الوفد الذي ارسلهم قوم عاد الى مكة في دولتهم الاولى للاستسقاء لهم وكانوا قد احتبس عنهم المطر ثلاث سنين فجاء الوفد ونزل على معاوية ابن بكر العاديّ بداعي ان هزيلة اخت معاوية هذا كانت عند نعيم ابن هزال احد الوفد . وبعد ان اقاموا شهراً في ضيافتهِ انبعثوا ومضوا الى الاستسقاء وتخلَّف عنهم لقضاء ابن عاد ومرثد ابن سعد . فلما رجعوا من الاستسقاء الى معاوية ابن بكر نفيهم خبر سهلك قومهم ومن جملتهم الخلجان فلكهم هلك بالريح فيمن هلك . قالوا كانت الريح من الشدة بحيث تقلع الشجر وترفع البيوت وكانت تدخل ايضاً تحت الرجل فتحملهُ الى الجبال وما زالت كذلك ثمانية ايام حسوماً حتى تقطع القوم وهلكوا عن آخرهم

واذا عارضنا هذا النقل بما ذكرهُ العلامة سايس ترجَّح معنا الحكم ان سكان حبرون الخليريين هم قبيلة من القبائل العربية الجنوبيَّة رحلوا في جملة من رحل للفتح ايام الدولة العادية

الاول واحتلوا حبرون وكانوا فيها معاصرين للملوك الرعاة وقد سبقوهم الى الاستيطان والتجارة في تلك الاصقاع (١)

ومثل ذلك في الغرابة والدلالة ان لم يكن اغرب وادل ان بلد امير في من بلاد اليمن والمشابهة ظاهرة بين اميريين اي من بلاد اميريين الاموريين الشهر قبائل كنعان القديمة الذين اورث الله ديارهم وما كنهم لبني اسرائيل . وكذلك نقول في حورة مدينة كنعان القديمة او الحوار مدينة الاصحيين من حمير فان المشابهة تامة بين المسميين الى احد هذين البلدين وبين الحوريين سكان ادوم وجبال الشراة قديمًا قبل ان نزل عليهم عيسو بن اسحق بن ابرهيم الخليل على ان ما ذكرناهُ في شأن الاموريين والحوريين والحميريين هو على وضوحه مبني على الظن فان تكشَّفت لنا بلاد اليمن عن كتاباتها بالخط المسند بما يرجح هذه الظنون او يثبتها فيه والاَّ فنبقى اقرب الى القبول من غيرها من الظنون والاقاويل التي عثرنا عليها الى الآن

يبقى علينا من شعوب كنعان الفينيقيون اهل التجارة والاستعمار في العصور الاولى قبل التاريخ المسيحي . الشعب الذي لم يقم مثلهُ في همتهِ ونشاطهِ واقدامهِ وميلهِ الى الرحلة والاستعمار في كل من نعرفهم من الشعوب القديمة بل كل منصف يتردد في تفضيل شعب آخر عليهِ الى الآن وان كان شعب بريطانيا العظمى . وعندي ان بني بريطانيا اهل الاستعمار اليوم واهل التجارة والتردد انما يحركهم الى ما يحركهم اليهِ من التوسع في التجارة والاستعمار بقايا ما ورثوهُ من هؤلاء الفينيقيين العظام فانهم اعني الفينيقيين في الراجح استعمروا كثيرًا من بلاد الانكليز واختلطوا باهلها قبل العصر المسيحي . الى اقول ما اقولهُ الآن لا كما يقول المؤرخ او الاثري الثقة بل كما يقول الخطيب على سبيل التهويل لكن في تهويلهِ شيئًا من الصحة والحقيقة او شبه منهما

من اين جاء هذا الشعب العظيم الى سواحل سوريا واين كانت المواطن التي توطنها

(١) جاء في سفر العدد ان حبرون بنيت قبل صوعن بسبع سنين . فاذا قرنا ومر المرجح ان قبيلة حبري المعادية كانت من جملة القبائل التي جاءت مع الملوك الرعاة وانها اخذت حبرون دورًا فما فتكون حبرون ضرورة اقدم من صوعن لان صوعن عاصمة الرعاة لم يختطها هؤلاء عاصمة لهم الا بعد حرب سنين لا تقل عن السبع في الراجح اخضعوا في اثنائها سكان البلاد من حبرون وجنوبي حبرون الى صوعن (هي المطرية بقرب القاهرة على ما نظن) ومنهُ الاشارة ظاهرة ولائحة كل الظهور وتؤيد القول ان الحميريين سكان حبرون (على ما ذكر العلامة سايس) هم احدى قبائل الملوك الرعاة كما ان القول في اصل الحميريين على ما مرَّ فيهِ تعليل ظاهر وبرهان واضح على صحة هذه الاشارة التاريخية

هؤلاء التجار المستعربون قيل ان بنوا صيدون العظيمة وصور ملكة البحار وتاجرة العالم. ان قفتهم من نفة الفرع الارامي اعني لغة الذين شيدوا بابل وارك واكّد وكلنة. ولكني لا ارجح انهم جاؤوا من بين النهرين من حيث جاء انسباؤهم العبرانيون والعمونيون والموابيون واعني بالنسب هنا النسب في اللغة لا في الآباء. فمن اين جاؤوا اذن. ان اليونان يتقلون عن مواطن الفينيقيين الاولى خبرًا لا نعلم ممن اخذوهُ ولكنهُ جدير بالقبول وهم يقولون انهم جاؤوا من خليج فارس من بلاد البحرين. وبلاد البحرين على ما نعلمهُ جزء طبيعي من بلاد العرب. هناك اي في بلاد العرب كانوا اولاً. وفي بلاد البحرين على شواطئهِ خليج العجم من القطيف الى شرجة وراس مصندم حيث جزيرتا كشم واورمز كانت مساكنهم الاولى. وارجح انهم ارتحلوا من هناك اولاً الى صور وصيدا في عمان واليمن. ولولا مخافة ان يقال انني اشتط هذا في رأيي لقلت ان القوم غزوا في ارضهم غزام احد الملوك الاقدمين كما غزام يختنصر من بعد في بلاد الشام واشتدت عليهم وطأتهُ ووطأة دولتهِ من بعدهِ فهاجروا فرقة بعد اخرى فمنهم من هاجر الى صور في بلاد عمان ومنهم الى صيدا في جنوبي اليمن بين زبيدة وتعاكا مرّ ثم من هناك الى الحبشة في مصر اذا صح ما يقال ان في الحبشة آثارًا منهم. ثم من هناك الى شطوط فينيقية. والذي اراهُ بناء على ما ذكرت ان صيدون تصغير صيدا باللغة الارامية او نسبة اليها فان كان الاشتقاق من التصغير فهم سمّوا مدينتهم بهذا الاسم اي سموا البلد الذي نزلوهُ اولاً باسم البلد الذي كانوا فيهِ وفرّقوا بينهما بالتصغير طبقًا للواقع لان البلدة التي بنوها كانت اصغر من التي هاجروا منها. وان كان الاسم من النسبة فالتسمية من القوم الذين نزلوا بينهم كما يسمّى من هاجر صيدا الى قرية من قرى مرج عيون او لبنان مثلاً بالصيداوي وهو معروف شائع من الوف سنين الى الآن. فان قيل ولمَ زعمت انهم هاجروا اولاً الى عمان وجنوبي اليمن قلت لانهُ لا يزال في بلاد عمان اسم صور ولا يزال في جنوبي اليمن شمالي باب المندب اسم صيدا لبلد ووادٍ وجبل ونقيل (اي طريق عسر تكاد لا تسلكهُ الدواب) ولا يزال قومٌ يُعرفون بالصيدي اي من اهل صيدا متفرقين في غير مكان من بلاد اليمن. وهذه الاسماء عريقة في القدم مثل كل اسماء البلاد العربية ولا يخبرنا التاريخ ولا التقليد ان أهل هذه الاماكن رحلوا اليها من بلاد اخرى بخلاف صور وصيدا في فينيقية فانا نعرف من التقليد المتواتر ان لم نقل من التاريخ ان اهل صور وصيدا جاؤوا اليهما من البلاد العربية. والذي نعرف عن العرب (وعن غيرهم من الامم ايضاً) انهم اذا استجدّوا دارًا وعمّروا فيها مدنًا سموا تلك المدن باسماء مدنهم الاولى التي كانوا فيها. ولا يزال كثيرٌ من مدن اسبانيا

التي استجدها العرب شاهداً على ما ذُكر فانهم سموها باسماء مدن الشام التي كانوا فيها اولاً

فان قيل ان لغة النبطيين هي من الفرع الآرامي فكيف مع هذا رجحت انهم جاؤوا من بلاد العرب . قلت ان مواطنهم الاولى كانت في البحرين على الخليج الفارسي . وهذه المواطن كانت ابداً يتنازعها الفرعان الساميان العربي الى الجنوب والغرب والآرامي الى الشمال واكثر ما كان النفوذ الغالب فيها النفوذ الآرامي . ومن المتواتر على لسان العرب ان اهل البحرين نبط استعربوا . ويؤخذ من هذا انهم كانوا يعلمون ان النبطية اي الآرامية كانت الغالبة في الازمنة الاولى على ارض البحرين . وفي هذا تعليل مقبول على ان اهل صور وصيدا هاجروا من بلاد العرب وكانت مع ذلك لغتهم من الفرع الآرامي

بقي علينا الاحياش على العدوة الثانية من البحر الاحمر فان فريقاً منهم يتكلمون لغة هي اقرب اللغات السامية الى اللهجة العربية وهم الغالا (على ما ارجح) وفريق آخر وهم الامهريون يتكلمون لغة تداخلت فيها اللغة السامية ولكن كثرتها لغة الاقوام الاصلية وهي لغة حامية محضة حتى غلبت عليها فلا يظهر فيها العرق السامي الا بعد الروية وامعان النظر . واذا نظرنا الى اولئك الذين يتكلمون الحبشية العربية رأيناهم قلائل عدداً بالنسبة الى الامهريين وبالنسبة ايضاً الى بقية امم الحبشة وافريقيا الذين هم من اصل حامي . ولا يُعلل ذلك تعليلاً يقبله العقل الا بان العرب في زمن بعيد جداً نزحت منهم نازحة كثيرة العدد فحفظت لذلك لغتها عن ان تتغلب عليها لغة الحاميين الافريقية . لكن نشط من هذه النازحة ناشط او جاء هذا الناشط من البلاد العربية رأساً فسكن بلاد الاماهرة وكان لهُ عليهم الغلبة والسؤدد لارتقائهِ في سلم المدنية ثم امتزج مع الاهلين على عادة الساميين . ولقلة عدد كثرهُ القوم فرقت لذلك لغتهُ وملاحتهُ في لغة الاماهرة وملاحتهم حتى لا يكاد يبين . ومثل ذلك يقال في لغة مصر القديمة فان اهل الثقة من علماء الالمان يرون في لغة وادي النيل عروقاً او تكيفات احدثتها مقاناة او ممازجة من اللغة السامية فيها ولا يُعلَّل ذلك الا بان هذا الجنس مثل المدنية الاولى في العالم كانت لهُ غلبة يوماً على مصر وهذه الغلبة في الراجح اقدم من غلبة دولة الرعاة بكثير . ثم تلا هذه الغلبة غلبات . منها غلبة الهكسوس المعروفة في التاريخ والناشئة بها آثار مصر . ومؤرخو العرب مع اختلاط اخبارهم وكثرة التشويش فيها يشفُّ كلامهم وتتوهم عن غير غلبة للعرب على بلاد الفراعنة . من ذلك غلبة او غلبات في ايام الدولة العادية وغلبة في ايام الدولة الحيرية او السائية او اليونية

وخلاصة القول ان اللغة السامية المنتشرة كانت ببلاد العرب مهدها الاول الذي نشأت فيه

قبل الفتح الاسلامي بين الفراتين وخليج العجم شرقاً وشمالاً والنيل والبحر المتوسط غرباً وبحر العرب جنوباً مع ما يلحق بذلك من نواحيه شمالي افريقية . فبلاد العرب في اذن مهد الجنس السامي ومنشأ المدنية الاولى ولا يزال فيها على رغم ظواهر الانحطاط والتأخر البادية عليها كل مقومات تلك المدنية ولا يتم من ظهورها الاَّ ضغط عليها من الخارج لا يلبث ان يزول عنها حتى تسطع شعلتها للمرَّة الثالثة كما سطعت المرة الثانية ايام الفتوحات الاسلاميَّة

جبر ضومط

باب تدبير المنزل

قد ضمنا هذا الباب لكي تدرج فيه كل ما يهم أهل البيت معرفته من تربية الاولاد وتدبير الطعام واللباس والشراب والمسكن والزينة وغير ذلك مما يعود بالنفع على كل عائلة

مبادئ اولية في تدبير المنزل

ربَّات البيوت على درجات كثيرة من حيث المقدرة الماليَّة اي من حيث دخلهنَّ او دخل ازواجهنَّ وما يستطعنَ انفاقهُ على بيوتهنَّ ولكن يُطلب منهنَّ كلهنَّ ان يقتصدنَ في النفقات ولا ينفقنَ الاَّ ما لا بدَّ من انفاقهِ . وان ينفقنهُ في خير السبل المؤدية الى النفع منهُ . فانهنَّ اذا عملنَ ذلك بقينَ في سعة بالنسبة الى حالهنَّ

ومن اول واجبات ربة البيت تدبير الطعام لزوجها واولادها إمَّا بنفسها او بواسطة الخدم . ولا تعفى من ذلك ولو كانت زوجة امير او وزير كبير . ولا يراد بتدبير الطعام مجرَّد طبخهِ بل الاهتمام بهِ من كل وجه حتى يكون هو الطعام اللازم المناسب والاَّ بذَّرت مال زوجها تبذيرًا . فاذا اشترت او سمحت للخدم ان يشتروا اطعمة فاسدة او غير لازمة واذا اعدت الاطعمة بالطبخ وتحويرٍ اعدادًا يتلفها او يجعلها غير صالحة للغذاء او مكروهة الطعم او تركت الخدم يفعلون ذلك فتكون قد اتلفت مال زوجها

اذا كانت ربَّة البيت في سعة وكان عندها خدم يشترون مواد الطعام ويعدونها وجب عليها ان تأمرهم بما يشترونهُ في الصباح قبل الفطور . وعليها ان ترى بنفسها ما في البيت من الاطعمة البائتة من اليوم السابق سواء كانت مطبوخة او غير مطبوخة حتى لا يضيع منها شيءٌ